الصورة الحقيقية والصورة المجازية في القرآن الكريم عند سيد قطب.

الأستاذة: كريمة محاوي
الأستاذ الدكتور: لحسن كرومي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة بشار– الجزائر
الأستاذ الدكتور: مختار حبار
كلية الآداب واللغات والفنون
جامعة وهران– الجزائر

الملخص:

عُرف سيد قطب بنظرية التصوير الفني في القرآن، وكان لها صداها في الدراسات القرآنية من بعده. إن قراءته المتميزة للقرآن نابعة من نظرته التصويرية التي جعلته يكتشف خبايا جمالية في النص القرآني. والتصوير عنده هو القاعدة الأساسية في التعبير القرآني؛ ذلك أن القرآن الكريم، في نظره، يعبر بالصورة عن كثير من مواضيعه على اختلافها. ويمكن تمييز نوعين من الصوَر القرآنية من خلال قراءة سيد قطب الجمالية للقرآن، إحداها اصطلحنا على تسميتها الصورة الحقيقية، وهي التي تعتمد في عرضها أساليب علم المعاني من تقديم وتأخير وحذف وذكر..، أما الثانية فهي ما أسميناها الصورة المجازية وهي التي تعتمد أساليب علم البيان من استعارة وكناية وتشبيه..

المتن:

الصورة من التصوير، وتأخذ معاني مختلفة، فالصورة صورة الوجه والصورة على البساط واللوحة، والصورة الفوتوغرافية والصورة في المجلَّة والتلفاز، والسينما وقد تسمّى مشهدا. أما في الأدب، الصورة البيانية وسيلة يعتمدها الشاعر أو الكاتب لتقريب مفهومه للمتلقّي وإعطائه بعدًا جماليا. وقد اهتم المذهب البياني الذي ظهر في النقد العربي قديمًا بالصورة وجعل منها مظهرًا من مظاهر التجديد التي سادت في ذلك العصر وحاولوا إثباتها،« وقد كان النّقاد قبل ظهور هذا المذهب يقيسون الأدب بما فيه من قوّة

المعاني وفخامتها، ونبالة الأغراض، أمّا الألفاظ والأساليب فلم تتجاوز النظرة إليهما جانب الصّحة والسلامة والدّقة في الأداء اللّغوي.»[1]

عبد القاهر الجرجاني من الذين اهتموا بالصورة الشّعرية اهتماما مباشرا، فقد « اتخذ مصطلح الصورة في منهج عبد القاهر أبعاداً جديدة لم يبلغها غيره ممَّن سبقه من النّقاد العرب، فوسع دلالاته حتّى يبدو أحياناً كأنّه يعد الصورة تحديداً للشعر وتعريفاً له(...) فقد وجد عبد القاهر في مصطلح الصورة حلاًّ لإشكاليتين واجههما النّقد الأدبي العربي قبله هما المفاضلة بين اللّفظ والمعنى وتكرار المعاني عند الشعراء.»[2] وبقيَ مفهوم الصورة عند العرب يدور في هذا المجال لا يتعدّاه.

أخذت الصورة الشّعرية عند علماء الغرب أبعاداً أخرى واختلف حدّها بين العلماء وقد« ظهر الاتجاه إلى تعريف الصورة الشّعرية بوصفها انطباعاً حسِّيّاً في النّظرية الّتي وضعها مجموعة الشعراء الإنكليز بين عامي 1912 و1917، وفي ممارساتهم الشعرية، وهي المجموعة الّتي عرفت باسم" التصويريين" وأبرزهم عزراباوند. غير أنّ المنظِّر الحقيقي للحركة الّذي تأثّر باوند بآرائه هو الشاعر والنّاقد تي. إي. هيوم الّذي كان من أوائل الّذين ثاروا في وجه الرومانطيقية بشكل منهجي من العقد الأول من هذا القرن.»[3] ومثلما تعلّق مفهوم الصورة عند العرب بعلوم البلاغة تعلّق كذلك عند الغرب بالمجاز والاستعارة والرمز والأسطورة[4].

سيّد قطب من الذين قرؤوا الفكر الغربي ونقده، ويبدو أنّه كان متأثراً بالمدرسة الرومانطيقية في بادئ الأمر، التي اعتنت بالصورة الشعرية في مباحثها، ويبرّر ذلك مقالاته النّقدية الأولى التي كانت تنشر في مجلّة المقتطف. وكان حديثها في الغالب حول التصوير الفنّي، وفي مقالة نشرها في المجلّة المذكورة[5] تحدثّ فيها عن المذاهب الأدبية وأيّها كان له اهتمام بالتصوير الفنّي« وبيّن في نهاية البحث مذاهب الأدب الأربعة: الكلاسيكية والرومانتيكية والرّمزية والواقعية. وأنّ التصوير الفنّي في القرآن يجنح إلى (الرّومانتيكية)، وفيه منه مشابه كثيرة، وإن كان هو سابقاً لظهور هذا المذهب في أوروبا.»[6] ومع تأثره هذا بالمدارس الغربية كان يكبر في عبد القاهر الجرجاني علميته وسبقه في علوم البلاغة.

تحدث سيّد قطب كثيراً عن عبد القاهر الجرجاني لأنّه في نظره الرّجل الوحيد الذي تمكن من الوصول إلى جوهر النّظرية النّقدية التي كان بإمكانها أن تخرج النّقد

العربي من متاهة اللّفظ والمعنى:« رجل واحد من الباحثين في البلاغة والإعجاز سابق للزمخشري الّذي ذكرناه هناك، بلغ غاية التوفيق المقدّر لباحث في عصره هو" عبد القاهر الجرجاني". فلقد أوشك أن يصل إلى شيء كبير في كتابه" دلائل الإعجاز" لولا أنّ قصّة" المعاني والألفاظ" ظلّت تخايل له من أوّل الكتاب إلى آخره فصرفته عن كثير ممّا كان وشيكاً أن يصل إليه، ولكنّه على الرّغم من ذلك كلّه كان أنفذ حسّاً من كل من كتبوا في هذا الباب على وجه العموم، حتّى في العصر الحديث.»[7]

أمّا تعريفه للتصوير الفنّي فهو تعريف مطوّل افتتح به فصل التصوير الفنّي في كتابه المذكور أعلاه؛ إذ يقول:« التصوير هو الأداة المفضّلة في أسلوب القرآن. فهو يعبِّر بالصورة المحسّة، المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النّفسية، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور وعن النّموذج الإنساني والطبيعة البشرية ثم يرتقي بالصورة الّتي يرسمها فيمنحها الحياة(...) فأمّا الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر فيردها شاخصة حاضرة، فيها الحياة وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل،(...) وهذه كلمات تتحرّك بها الألسنة، فتنم عن الأحاسيس المضمرة. إنّها الحياة هنا وليست حكاية الحياة.»[8]

التصوير القرآني، إذن، ارتقاء بالصورة الجامدة إلى مصاف الكائنات الحية التي تعيش وتتفاعل وتؤثر. وقد اهتم سيد قطب بهذه الصور وحدد خصائصها ودرس حالاتها سواء كانت صورا حقيقية أو مجازية.

الصورة الحقيقية:

الصورة الحقيقية، بالمفهوم العامي، صورة فوتوغرافية لشيء ما أو منظر ما، أو صورة مرسومة بريشة فنان تجسِّد منظرا حقيقيا كما هو في الطبيعة وهو ما يسمى في الفن بالرسم الواقعي. والتصوير بمفهومه العلمي« أخذ الشيء من الطبيعة إلى اللاطبيعة، دون إضافة أو تجريد(في قالب حركي)..(و) الرسم: هو محاولة نقل الشيء من الطبيعة إلى اللاطبيعة(في قالب ساكن).»[9]

والصورة الحقيقية في الأدب تعبير باللّغة عن معنى من المعاني بطريقة فنّية؛ أي بطريقة غير مباشرة يتم فيها استعمال" علم المعاني"(بالأخص) كأسلوب لتوصيل المعاني، وهي طريقة اعتمدها الأدباء العرب قديماً وحديثاً في أشعارهم، وهي تقوم على أساس الوصف، أي وصف أمر ما أو شيء ما بما فيه ولكن بأسلوب فني. غير أن النّقد العربي

لم يتناولها بالقدر الكافي كمفهوم علمي وإنما تعرض لها في إطار حديثه عن المجاز والأساليب البلاغية المختلفة وبالخصوص في أثناء اهتمامهم بقضية اللفظ والمعنى.

لقد ربط العلماء قديما بين التصوير والمجاز، وصنفوا فيه كثيراً وفصّلوا تفصيلا طويلا والمجاز عندهم استعمال اللغة في غير ما وضعت له في الأصل وعبد القاهر الجرجاني من الذين اهتموا بالصورة الحقيقية ولكن في خضم حديثه عن المجاز والاستعارة؛ فهو يرى أن المجاز قرين الحقيقة« بسبب وجوده في التنزيل؛ يقول في ذلك:« ومن قدح في المجاز وهمّ أن يصفه بغير الصدق فقد خبط خبطاً عظيماً ويهدف لما يخفى» وفصلٌ لديه بين حقيقة ومعقول.»[10]

صنف سيد قطب التشخيص ضمن التصوير الحقيقي للأشياء والظواهر في الكثير من الأحيان. وهو لونً من ألوان التصوير الفني عنده.« ويفهم من كلام سيد قطب، أنه يرى أن التشخيص في القرآن يُحمل على الحقيقة لا على المجاز، يقول في حديثه عن الآية التي تشخص جهنم:﴿ **إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ(7) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ**﴾[11](وجهنم هنا مخلوقة حية، تكظم غيظها فترتفع أنفاسها في شهيق وتفور، ويملأ جوانحها الغيظ، فتكاد تتمزق من الغيظ الكظيم، وهي تنطوي على بغض وكره يبلغ حد الغيظ والحنق على الكافرين. والتعبير في ظاهره يبدو مجازا تصويرياً لحالة جهنم. ولكنه، فيما نحس، يقرر حقيقة، فكل خليقة من خلائق اللّه، حية ذات روح من نوعها، وكل خليقة تعرف ربها وتسبح بحمده..»[12]

الصورة الحقيقية هي تلك الّتي تدفع بالمتلقي إلى رسم مشهد في مخيّلته يكون حقيقياً معبِّراً فتغدو الصورة لديه مرئيّة مسموعة، بعد أن كانت مكتوبة مقروءة وللخيال في هذا دور أساسي في تصوير المعاني لا يمكن إغفاله. وكلّ معنى يرتسم في الخيال ليجسّد صورة ما. التخييل ركن أساسي في نظرية التصوير الفني عند سيد قطب وللخيال دور مهم عنده في العملية الإبداعية من المبدع إلى المتلقي؛ يقول في هذا:« نحسب أن الخيال هو صلة ما بين الإنسان القاصر والحقيقة المحجبة، التي تدق على الأفهام فينبعث الخيال ليقترب من هذه الحقيقة. وهو في ناحية أخرى صلة ما بين الإنسان وآماله البعيدة التي لا يحققها له الواقع فيبعث إليها بشباك من خياله يدنيها منه ويقربه إليها.»[13].

فالصورة الحقيقية، إذن، تعتمد التصوير المباشر الذي يعتمد اللغة المباشرة ولكنه ما دام تعبيراً أدبيا فإن اللغة فيه تعتمد أساليب القول المعروفة في علم المعاني من تقديم

وتأخير وحذف وذكر، وإيجاز لتوصيل المعنى جميلا، يؤدي دور المتعة الفنية لدى المتلقي.

التمثيل أسلوب بلاغي آخر من أساليب التعبير العربي. اهتم عبد القاهر الجرجاني بدراسته في كتابيه« الدلائل» و« الأسرار» وقد مثل له بالقرآن والشعر العربي؛ وقد عرفه بأنه التعبير عن المعنى بمعنى آخر يكون حقيقياً لغايته في الواقع مع قرينة تربطه بالمعنى المراد. وهو بهذا" تعبيرٌ عن ما في الأذهان بما هو في الأعيان"، وهو الأمر الذي فصّل فيه سيد قطب في نظرية التصوير الفني وعبر عنه بالتجسيم؛ أي تجسيم شيء معنوي في شيء مادي ملموس ومرئي للمتلقي. وهذا بيت يوضح فيه الجرجاني التمثيل وكيف أنه تصوير فني عن الحقيقة بالحقيقة، إنها صورة حقيقية فنية:

« لَوْلاَ اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا حَاوَرَتْ ** مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عُرْفِ الْعُودِ.

وانظر هل نشر المعنى تمام حلته، وأظهر المكنون من حسنه وزينته، وعطرك بعرف عوده وأراك النضرة في عوده، وطلع عليك من مطلع سعوده، واستكمل فضله في النفس، ونبله واستحق التقديم كله إلاّ بالبيت الأخير وما فيه من التمثيل والتصوير.»[14] فالتمثيل يجعلك مشاهداً وسامعاً وحاضراً فيفقه المتلقي المعنى كاملا زيادة على الجمال الفني الذي يتذوقه من البيت الشعري والفائدة التي يحظى بها. ويقول الجاحظ في بيت المتنبي القائل:

« وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ ** يَجِدْ مُرّاً بِهِ الْمَاءَ الزُّلاَلاَ .

لو كان سلك بالمعنى الظاهر من العبارة كقولك: إن الجاهل الفاسد الطبع يتصور المعنى بغير صورته ويخيل إليه في الصّواب أنه خطأ. هل كنت تجد هذه الروعة؟ وهل كان يبلغ من وقم الجاهل ووقذه وقمعه وردعه والتهجين له والكشف عن نقصه، ما بلغ التمثيل في البيت وينتهي إلى حيث ينتهي»[15]

إن الحديث عن التمثيل في مجال الصورة الحقيقية مردُّه إلى الاتصال الوثيق بين التمثيل والحقيقة– مثلما ذهب إلى ذلك الجرجاني– وهو كذلك ما يستكشفه القارئ لكتاب « التصوير الفني في القرآن» ذلك أن سيد قطب تحدث كثيراً عن التجسيم والتشخيص وفصّل فيهما كثيراً ومثل لهما من القرآن الكريم ليثبت نظريته. يقول في قوله تعالى: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾[16]

« (...) إنه يستجيش المشاعر والانفعالات الحية في الكيان الإنساني كله.. إنه يعرض صورة من صور الحياة النابضة النامية المعطية(...) إن المعنى الذهني للتعبير ينتهي إلى عملية حسابية تضاعف الحبة الواحدة إلى سبعمائة حبة؟ أما المشهد الحي الذي يعرضه التعبير فهو أوسع من هذا وأجمل وأكثر استجاشة للمشاعر، وتأثيراً في الضمائر..»[17] والتمثيل بهذا الشكل كثير في القرآن لم يهمله صاحب" التصوير الفني" في كتاباته وفي كل مرّة كان يركز على التأثير النفسي للصّور والظلال القرآنية على نفس المتلقي.

تجعل الصورة الحقيقية في القرآن من المتلقي مشاهداً للحدث أو المعنى المراد، زيادة على الفائدة المرجوة. والمشاهدة تثبت المعنى لدى المتلقي أكثر من غيرها ويمثل الجرجاني لذلك بقوله:« ولو أن رجلا أراد أن يضرب لك مثلا في تنافي الشيئين فقال: هذا وذاك هل يجتمعان؟ وأشار إلى ماء ونار حاضرين وجدت لتمثيله من التأثير ما لا تجده إذا أخبرك بالقول فقال: هل يجتمع الماء والنار؟ وذلك الذي تفعل المشاهدة من التحريك للنفس، والذي يجب بها من تمكن المعنى في القلب، إذا كانت مستفادة من العيان ومتصرفة حيث تتصرف العينان»[18]

قد يكون التعبير في القرآن الكريم مباشراً ولكن نظمه المعجز يجعل منه موحيا مصوّراً لمشاهد يعجز الإنسان عن الإتيان بمثلها، هذه المشاهد التي جعل منها سيد قطب مادة دراسته، وهي صور حقيقية في القرآن:« يقول تعالى:﴿ **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129)**﴾.[19]

لقد انتهى الدعاء، وانتهى المشهد، وأسدل الستار. هنا حركة عجيبة في الانتقال من الخبر إلى الدعاء، هي التي أحيت المشهد وردّته حاضراً فالخبر:﴿ **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ**﴾ كان كإنما الإعجاز هو الإشارة برفع الستار ليظهر المشهد: البيت وإبراهيم وإسماعيل، يدعوان هذا الدعاء الطويل. وكم في الانتقال هنا من الحكاية إلى الدعاء من إعجاز فني بارز، يزيد وضوحاً لو فرضت استمرار الحكاية ورأيت كم كانت الصورة تنقص لو قيل: إذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل يقولان: ربنا... إلخ. إنها في هذه الصورة حكاية، وفي الصورة القرآنية حياة وهذا هو

الفارق الكبير. إن الحياة في النص لتثب متحركة حاضرة وسر الحركة كله في حذف لفظة واحدة.. وذلك هو الإعجاز.»[20]

نظم القرآن المعجز هو الذي يجعل من المتلقي ينتج صوراً متحركة في خياله نابضة بالحياة وصوراً ساكنة تحييها الألوان انطلاقا من تعابير مباشرة في لغتها لا تحوي مجازاً ولا أساليب بيانية لتعطيها بعدها التصويري والأمثلة من هذا النوع كثيرة.

ومن منطلق أن القرآن صالح لكل زمان ومكان ويخاطب كل البشر على اختلاف الأجناس والألوان، نجد للآيات تفسيرات تختلف في كل مرّة، ولكنها كلها صالحة وموجهة لهذا الإنسان لتنظم له حياته. والقارئ للقرآن تأخذ مخيلته تلك التعابير الموحية التصويرية فيخرج، في كل مرة، منها بقراءة جديدة أكثر إيحاءً وأكثر تصويراً.

يطرق التصوير القرآني كل المواضيع وكل المجالات فلا يقتصر على مجال دون الآخر، وأهم الحالات التصويرية في القرآن تصوير الحال: حال البشر؛ حال الخائف، حال الهادئ المطمئن، حال الكافرين وحال المسلمين في شتى الأزمنة، حال الإنسان في أحداث معينة في الزمان والمكان فيختلف التصوير من حال إلى حال ويجسد تلك الأحوال تجسيداً يجعلها مسموعة مرئية.

يقول عز من قائل:«﴿ **أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ.**﴾[21].. ولعلّ نص الآية إنما يصوّر حالة واقعة كانت تصدر من المشركين ورسول اللّه، صلى اللّه عليه وسلم، يُسمعهم كلام اللّه، فيثنون صدورهم ويطأطئون رؤوسهم استخفاء من اللّه الذي كانوا يحسون في أعماقهم أنه قائل هذا الكلام.. وذلك كما ظهر منهم في بعض الأحيان؟ ولا يكمل السياق(كذا) الآية حتى يبين عبث هذه الحركة، واللّه، الذي أنزل هذه الآيات، معهم حين يستخفون وحين يبرزون. ويصوّر هذا المعنى، على الطريقة القرآنية، في صورة مرهوبة، وهم في وضع خفي دقيق من أوضاعهم. حين يأوون إلى فراشهم ويخلون إلى أنفسهم، والليل لهم ستار وأغطيتهم لهم ستار. ومع ذلك فاللّه معهم من وراء هذه الأستار حاضر ناظر قاهر. يعلم في هذه الخلوة ما يسرون وما يعلنون»[22]

تعرض سيد قطب لكثير من الحالات المصوّرة في القرآن، وهي، على بساطتها في التعبير– تحمل معاني كبيرة إذا ما شوهدت من خلال منظر مصوّر أو بمعنى آخر إذا ما قرئت من زاوية تصويرية قراءة متدبرة بخيال مصوّر. وقراءة سيد قطب للقرآن من

الزاوية التصويرية مكنته من إماطة اللثام عن كثير من المناظر الباهرة في القرآن فائقة في التصوير وخارقة في الجمال والمتعة الفنية، عميقة التأثير في نفوس المتلقين.

الصورة الحقيقية متواجدة في القرآن، وقد جاءت لتبليغ المتلقي وهدايته وإمتاعه وتنبيهه إلى مواطن الجمال في نفسه وفيما حوله وبالتالي في ربه؛ خالق الكون البديع.

الصورة المجازية:

عبر علماء العرب القدامى عن الصورة المجازية بلفظ" المجاز" عموما، وقد ورد في كتابات العديد من البلاغيين تعبيرا عن الوجوه البلاغية وما تؤديه من دور في هذا المجال؛ غير أن لفظ" الصورة" لم يقترن بالمجاز، بمفهومه الحديث، بغض الطرف عن حديث الجرجاني عن التصوير والتزويق والزخرفة حين دراسته للبلاغة وأضربها.

والمجاز لغة« مصدر جزت مجازا، ومعنى المجاز طريق القول ومأخذه وجزت تعديت(...) ويقول عنه ابن الأثير في" المثل السائر":" وأما المجاز فهو ما أريد به غير الموضوع له في أصل اللغة، وهو مأخوذ من جاز من هذا الموضع إلى هذا الموضع إذا تخطاه إليه"»[23]

ينقسم المجاز حسب علماء البلاغة أقساماً: مجاز لغوي، ومجاز عقلي، ومجاز مرسل،... وقد تختلف المصطلحات بين العلماء للمعنى الواحد، وتعريف المجاز وأنواعه موجود في المعاجم البلاغية على اختلافها فقد زخرت به كتب البلاغة لما له من أهمية في مجال العربية وتخصُّصاتها[24]. ويقسم القزويني المجاز قسمين يعد أحدهما الاستعارة فيقول:« والمجاز ضربان: مرسل واستعارة لأن العلاقة المصححة إن كانت تشبيه معناه بما هو موضوع له فهو استعارة، وإلاّ فهو مرسل.. »[25]

إن الصورة المجازية في القرآن ذات أهمية خاصة تختلف عنها في فنون القول البشرية ونتيجة لهذه الأهمية اختلف العلماء قديما حول المجاز في القرآن كل حسب مشاربه واتجاهاته، فمنهم من أثبت المجاز في القرآن ومنهم من نفاه عنه ومنهم من توسط في مذهبه.

ونظراً للاختلاف الذي وقع بين العلماء في قضية إثبات المجاز للقرآن أو نفيه عنه فإن عبد القاهر الجرجاني ردّ بشدة على أولئك الذين ينفون المجاز عن القرآن، وعدّ المجاز أسلوباً عربيا، حقيقيا صادقا لا مجال للكذب فيه« ويأتي بحثه للتخييل في إطار مناقشته مسألة الصدق والكذب في الشعر فيربط التخييل بالكذب ويفصل فصلا قاطعا بينه

وبين المجاز الذي لا يخرج عنده عن الصدق لارتباطه بما يدعوه بالحقيقة. وأما التخييل فبعيد عن الحقيقة، إنه خداع للعقل وضرب من التزويق»[26]

إن التمثيل والتخييل مصطلحين ظهرا في النقد العربي القديم يقتربان من مفهوم الصورة اليوم وقد ورد سابقا أن التمثيل يصنف ضمن الصورة الحقيقية حسب تعريف الجرجاني له وقد يدخل التخييل بمفهومه القديم ضمن الصورة المجازية.

والتمثيل صورة حقيقية تحدث عنه الجرجاني في« دلائل الإعجاز» كثيراً ورأى أنه القريب من الاستعارة فيكون تمثيلا مجازيا يعرفه بقوله:« وأما التمثيل الذي يكون مجازاً لمجيئك به على حدّ الاستعارة، فمثاله قولك للرّجل يتردد في الشيء بين فعله وتركه: أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى، فالأصل في هذا أراك في ترددك كمن يقدم رجلا ويؤخر أخرى ثم اختصر الكلام وجعل كأنه يقدم الرجل ويؤخرها على الحقيقة.»[27]

وتصبح الصورة مجازية إذا تغير تركيب الكلام عن وضعه الطبيعي، وكل تغير في التركيب اللغوي، مهما كان بسيطا، يؤدي حتما إلى تغير الدلالة، وفي هذا التغيير تتكون الصورة المجازية. وقد اهتم سيد قطب بالصورة المجازية في الخطاب القرآني. وصنف ضمنها أنواعا من الأساليب التصويرية، منها التشخيص الذي يعرفه بقوله:« لون من ألوان« التخييل» يمكن أن نسميه« التشخيص» يتمثل في خلع الحياة على المواد الجامدة والظواهر الطبيعية، والانفعالات الوجدانية(...) وتهب لهذه الأشياء كلها عواطف آدمية وخلجات إنسانية تشارك بها الآدميين(...) وتجعلهم يحسون الحياة في كل شيء تقع عليه العين أو يتلبس به الحس فيأنسون بهذا الوجود أو يرهبونه، في توفز وحساسية وإرهاف.»[28] وهو تعريف يشابه إلى حدٍّ ما تعريف عبد القاهر الجرجاني لأحد أنواع التخييل:« بيان ذلك أنهم يستعيرون الصفة المحسوسة من صفات الأشخاص للأوصاف المعقولة، ثم تراهم كأنهم قد وجدوا تلك الصفة بعينها وأدركوها بأعينهم على حقيقتها.»[29]

كان لسيد قطب نظرة اتجاه المجاز بعيداً عن القرآن وذلك من خلال دراساته النقدية حول الشعر في كتابيه« مهمة الشاعر في الحياة» و« النقد الأدبي أصوله ومناهجه» ويعد الشعر شعراً بما فيه من مجاز نابع من أعماق الشاعر ممتزجاً بمشاعره وعواطفه بعيداً عن الكلام العامي المبتذل والمباشر. تحدث سيد قطب في هذا المجال عن التصوير المجازي وتبرز نظرته التصويرية التي عهدناها في« التصوير الفني في

القرآن»، يقول:« والتصوير الحسي يبلغ درجة الفن العالي حين لا يجمد عند الصور الحسية، بل يدع للخيال سبيلا للعمل حول هذه الصور، يتدرج منه إلى التأثر الوجداني. وهذا الشاعر السوري« فؤاد الخطيب» يصف بلداً أثريا بقوله:

بَلَداً كَأَنَّ يَداً دَحَتْـــــهُ فَخَـــــرَّ مِـــنْ ** قِلَلِ الْجِبَالِ مُمَزَّقُ الْأَوْصَالِ.

فَهُنَا الصُّخُورُ عَلَى الصُّخُورِ تَحَطَّمَتْ ** وَهُنَاكَ مِنْـــهُ حَقِيقَـــةٌ كَخَيَالِ.

(...) هذه صورة حسية لا تقف عند الحس الجامد بل تدع للخيال أن يتصوّر اليد تدفع هذا البلد من قلل الجبال، فيخر ممزق الأوصال... »[30]

الشعر عند سيد قطب هو ذلك الشعر الذي يحرك الوجدان والخيال لدى المتلقي، والذي يدفع به إلى التفاعل مع النص لإنتاج تجربة جمالية فذة، فهو لا يعني بالتصوير الحسي أن نأتي بالصور الحسية جامدة بعيدة عن وجدان الشاعر وأحاسيسه منقطعة عن المتلقي وإنما يراه كلا متكاملا يخاطب العقل والخيال والحس والوجدان ولا يرى في الشعر أن يكون شعراً مباشراً وإنما يفضل أن يكون صعب المنال يثير الخيال ويدفع بالمتلقي إلى التدبر والتفكر.

عماد الصورة المجازية الخيال، فهو الذي ترتسم فيه الصورة، ذلك أنها بعيدة عن الواقع لأنه ليس لها وجود فيه. وإنما الخيال هو الذي يرسمها ويعطيها أبعادها، خاصة إذا كان الخيال مبدعاً. وبهذا اهتم سيد قطب بمصطلح التخييل وجعله أساس عملية التصوير الذهنية سواء كانت حقيقية أو مجازية؛ فالعملية التصويرية،- بكل أبعادها، تحدث في ذهن المتلقي، وتتفاوت درجات العملية التخيلية من متلقٍ لآخر تبعاً لطبيعة خيال المتلقي وتبعاً لطبيعة النص المبدع كذلك.

قسم سيد قطب التصوير المجازي قسمين هما: التخييل الحسي والتجسيم. والمتأمل لهذين المصطلحين يرى للوهلة الأولى أنهما متقاربين في المفهوم، إذا لم يكونا متطابقين، وسيد قطب في واقع الأمر فرق بينهما تفريقاً دقيقا، وعدَّهما الأساس في عملية التصوير:« حينما تقول: إن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، والقاعدة الأولى فيه للبيان؛ لا نكون قد انتهينا من الحديث عن هذه الظاهرة الشاملة. فإن وراء ذلك بقية تستحق أن نفرد لها هذا الفصل الخاص.»[31]

والفصل الخاص الذي أفرده سيد قطب لهذا الأمر هو فصل التخييل الحسي والتجسيم. وأهم لون من ألوان التخييل الحسي سماه التشخيص، وإذا تتبع القارئ تعريف سيد قطب لكل من التشخيص والتجسيم يجد الفرق الدقيق الذي يراه فاصلا بينهما.

عرّف سيد قطب التشخيص بقوله:« لون من ألوان« التخييل» يمكن أن نسميه « التشخيص» يتمثل في خلع الحياة على المواد الجامدة، والظواهر الطبيعية، والانفعالات الوجدانية(...) وتهب لهذه الأشياء كلها عواطف آدمية، وخلجات إنسانية، تشارك بها الآدميين(...) وتجعلهم يحسون الحياة في كل شيء تقع عليه العين. أو يتلبس به الحس، فيأنسون بهذا الوجود أو يرهبونه، في توفز وحساسية وإرهاف»[32] يمكن تمثيل تعريف التشخيص بالمخطط الموالي:

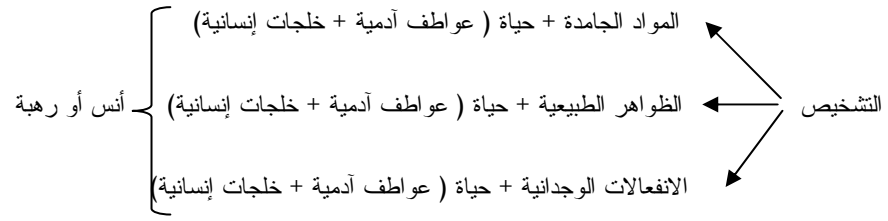

تعريف سيد قطب هذا، تعريف حداثي للاستعارة التي حفلت بها كتب البلاغيين وبتحليلها وتصنيفها، وقد سبق الحديث عنها وعن المجاز، لكنه هنا يعطيها بعداً حيويّاً تصويريّاً مبتعداً عن استعمال المصطلحات.

والتجسيم عند سيد قطب استعارة كذلك بالمصطلح البلاغي ولكنه يختلف عن التشخيص في أن له خصائص تميزه شكلا لكن لهما الهدف نفسه:« ولكن الذي نعنيه هنا بالتجسيم، ليس هو التشبيه بمحسوس، فهذا كثير معتاد، إنما نعني لونا جديداً هو تجسيم المعنويات، لا على وجه التشبيه والتمثيل بل على وجه التصيير والتحويل»[33] والفرق بين التشخيص والتجسيم هو التصيير والتحويل فالعلاقة ليست علاقة تشبيه.

التشبيه←تشبيه الشيء بالشيء لوجود علاقة مشابهة بينهما←(علاقة على وجه التشبيه).

التجسيم←وصف الشيء بالشيء لوجود علاقة تحويل←(علاقة على وجه التصيير والتحويل)

مثال: يقول تعالى:﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ**﴾[34]

المعنى: صارت أعمالهم رماداً تذهب به الريح.

فمن الناحية البلاغية(أعمالهم كرماد) تشبيه يتوفر فيه المشبه والمشبه به وأداة التشبيه، أما سيد قطب فيعده تجسيما؛ ذلك أن المضمون المعنوي صار ماديّاً محسوساً، ومرئيا. والتصوير بمفهومه الحديث يكون أكثر اقتراباً من التجسيم، فتوليد الصورة«.. لا يخرج عن إطار تصغير الشيء أو تحويله من شيء إلى شيء.. أو بناء الشيء على أنقاض الشيء، وتدخل هنا عملية التحجيم أو إخراج الشيء من الشيء، كالتوليد الذي يوصلنا إلى نظرية توليد الصورة من الصورة.»[35]

ولقد تحدث القدماء عن هذا التجسيم ولكن تعبيراً عن الاستعارة، لأنها تتوفر بكثرة في الشعر الجاهلي في مثل حديثهم عن امرئ القيس:« وقد تحصل الغرابة بالجمع بين عدة استعارات لإلحاق الشكل بالشكل، كقول امرئ القيس: الطويل.

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ ** وَأَرْدَفَ أَعْجَازاً وَنَاءَ بِكَلْكَلِ.

أراد وصف الليل بالطول؛ فاستعار له صلبا تمطى به، إذا كان ذي صلب يزيد في طوله عند تمطيه بشيء، وبالغ في ذلك أن جعل له أعجازاً يردف بعضها بعضاً، ثم أراد أن يصفه بالثقل على قلب ساهره، والضغط لمكابده؛ فاستعار له كلكلا ينوء به. أي يثقل به. وقال الشيخ عبد القاهر: لما جعل لليل صلبا تمطى به، ثنى ذلك فجعل له أعجازاً قد أردف بها الصلب، وثلث فجعل له كلكلا قد ناء به فاستوفى له جملة أركان الشخص، وراعى ما يراعي الناظر من سواه إذا نظر قدامه، وإذا نظر خلفه وإذا رفع البصر ومده في عرض الجو.»[36]

ومن أمثلة التشخيص القرآني عند سيد قطب:« ويريد أن يبرز المعنى: أن اللّه وحده يستجيب لمن يدعوه، وينيله ما يرجوه؛ وأن الآلهة التي يدعونها مع اللّه لا تملك لهم شيئا، ولا تنيلهم خيراً، ولو كان الخير قريبا، فيرسم لهذا المعنى هذه الصورة العجيبة: ﴿ **لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ.**﴾ [37]

وهي صورة تلح في الحس والوجدان، وتجذب إليها الالتفات، فلا يستطيع أن يتحول عنها إلاّ بجهد ومشقة، وهي أعجب الصور التي تستطيع أن ترسمها الألفاظ:

شخص حي شاخص باسط كفيه إلى الماء. والماء منه قريب، يريد أن يبلغ فاه، ولكنه لا يستطيع، ولو مدّ مدّة فربما استطاع.»[38]

فصَّل سيد قطب في التخييل الحسّي فأدرج فيه أنواعاً أو(ألونا) من التخييل اكتشفها في القرآن الكريم. منها: تصوير المعاني المجردة والحالات النفسية والمعنوية في صور متحركة: ومثاله على ذلك قوله تعالى:﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ**﴾[39]

ومن ألوان التخييل عنده الحركة المتخيلة: ومنها قوله تعالى:﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا**﴾[40] وركز سيد قطب على كلمة(قدمنا)؛ إذ أنها تمنح الصورة حركة تخييلية لا تمنحها كلمة غيرها. ومن ألوان التخييل الحسي أيضا الحركة الممنوحة لما من شأنه السكون: ومثالها قوله تعالى:﴿ **وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا**﴾[41]

أما التجسيم فمن أمثلته عند سيد قطب:«﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا**﴾[42](...) فيجعل كأن هذا العمل المعنوي مادة محسوسة. تحضر(على وجه التجسيم) أو تحضر هي(على وجه التشخيص) أو توجد عند اللّه كأنها وديعة تسلّم هنا فتتسلم هناك. وقريب من هذا تجسيم الذنوب كأنها أعمال(تحمل على الظهور زيادة في التجسيم):﴿ **وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ.**﴾[43].»[44]

يرجع سيد قطب الإعجاز في التصوير القرآني سواء كان حقيقة أو مجازاً إلى أسرار خفية لا يعلمها إلاّ اللّه ويبرز الفرق بينها وبين الصور البشرية؛ إذ أن وسيلة كل منهما وسيلة لغوية ولكن الاختلاف يكمن في أن التصوير القرآني حي معجز والتصوير البشري يبقى قاصراً مهما بلغ من درجات التفوق والرقي:« فإذا ما ذكرنا أن الأداة التي تصوّر المعنى الذهني والحالة النفسية وتشخص النموذج الإنساني أو الحادث المرويّ، إنما هي ألفاظ جامدة، لا ألوان تصوّر، ولا شخوص تعبر، أدركنا بعض أسرار الإعجاز في هذا اللون من التعبير القرآني.»[45]

والمثير للانتباه في طريقة سيد قطب في دراسة الصورة القرآنية، ابتعاده عن التعبير البلاغي وانتقاصه منه في أكثر من موضع فهو لا يؤدي الغرض الجمالي. بالنسبة إليه، بقدر ما يؤدي الغرض التعليمي. المهم عند سيد قطب هي حركة الصورة وحيويتها

ومدى تأثيرها في المتلقي. والجديد في التعبير القرآني أنه جمع بين التخييل والتفكير. أي أنه يقوم بإيصال الأفكار الذهنية للمتلقي بطريقة جمالية فنية.

الهوامش:

1- العربي حسن درويش. النقد العربي القديم. مقاييسه واتجاهاته وقضاياه وأعلامه ومصادره: 48/ 49.

2- ريتا عوض. بنية القصيدة الجاهلية. الصورة الشعرية لدى امرئ القيس: 71.

3- المرجع نفسه: 52/ 53.

4- المرجع نفسه: 41.

5- ينظر صلاح عبد الفتاح الخالدي. نظرية التصوير الفني عند سيد قطب: 113. نقلا عن مجلة المقتطف. المجلد 94 ج 02. فبراير207/1939.

6- المرجع نفسه: 113.

7- سيد قطب. التصوير الفني في القرآن: 31.

8- المرجع نفسه: 31.

9- محمد أوذينة. التصوير بالكلمات. نقد: 07.

10- ريتا عوض. بنية القصيدة الجاهلية. الصورة الفنية لدى امرئ القيس: 76. نقلا عن أسرار البلاغة: 365.

11- الملك: 07- 08.

12- صلاح عبد الفتاح الخالدي. نظرية التصوير الفني عند سيد قطب: 136. نقلا عن " في ظلال القرآن": 06/ 3634- 3635.

13- سيد قطب. مهمة الشاعر في الحياة: 40.

14- عبد القاهر الجرجاني. أسرار البلاغة: 100.

15- المرجع نفسه: 100.

16- البقرة:261.

17- سيد قطب. في ظلال القرآن: 01/ 306.

18- عبد القاهر الجرجاني. أسرار البلاغة: 106/ 107.

19- البقرة: 127- 129.

20- سيد قطب. التصوير الفني في القرآن: 57.

21- هود: 05.
22- سيد قطب. في ظلال القرآن: 04/ 1855- 1856.
23- انعام فوال عكاوي. المعجم المفصل في علوم البلاغة: 237.
24- ينظر المعجم المفصل في علوم البلاغة. إنعام فوال عكاوي: 239.
25- الخطيب القزويني. الإيضاح في علوم البلاغة: 265.
26- ريتا عوض. بنية القصيدة الجاهلية. الصورة الشعرية لدى امرئ القيس: 83.
27- عبد القاهر الجرجاني. دلائل الإعجاز: 54.
28- سيد قطب. التصوير الفني في القرآن: 73.
29- عبد القاهر الجرجاني. أسرار البلاغة: 262/ 263.
30- سيد قطب. مهمة الشاعر في الحياة: 27/ 29.
31- سيد قطب. التصوير الفني في القرآن: 71.
32- المرجع نفسه: 73.
33- سيد قطب. التصوير الفني في القرآن: 79.
34- إبراهيم: 18.
35- محمد أوذينة. التصوير بالكلمات: 07.
36- الخطيب القزويني. الإيضاح في علوم البلاغة: 288/ 289.
37- الرعد: 14.
38- سيد قطب. التصوير الفني في القرآن: 41.
39- الحج: 11.
40- الفرقان: 23.
41- مريم: 04.
42- آل عمران: 30.
43- الأنعام: 31.
44- سيد قطب. التصوير الفني في القرآن: 80.
45- المرجع نفسه: 37.